حواريّة مع الراحل أَحمد حاطوم*

أَحمد عُلَبي

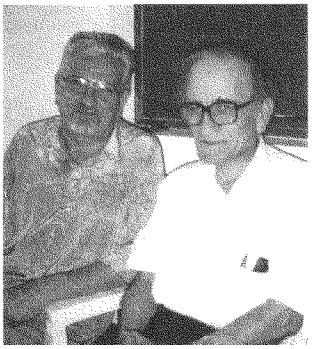

أحمد حاطوم (إلى اليمين) وأحمد عُلَبي

عُلَبي: يا أبا شيْمِنْ وهيلانة وشهرزاد وأنديرا، يا أبا البنات النيّرات الملهَمَات، أُقرئك السلامَ يا أحمد، مفعمًا بالشوق الغائر وباللوعة على فراقك. دعنا الآن من الشجن، وحياتُنا، حيث تركتنا في هذا الوطن الصغير ـ الكبير، طافحةٌ بدواعي الحزن والقنوط. على فكرة، ولنتناى عن إيقاع الأسى، ما حَمَلَك، وأنت حارسُ العربيّة وعاشقُها، على التوسّل لبناتك جمعاء بأسماءٍ أجنبيّة، وأنت تشرّق فيها وتغرّب، فتُنقّل الخطو بين إسپانيا واليونان وفارس فالهند؟

حاطوم (ضاحكًا): يجوز للغويّ ما لا يجوز لغيره! مذ وعيتُ على الدنيا صغيرًا وأَدركتُ الأشياء، فلقد لمستُها وتحسّستُها عَبْرَ اللغة. أنا كائن لغويّ، كما عرفتني، يا أبا عمّار، وكما عرفني الصَّحْبُ من حوليَ في الضاحية «الشيّاح» الغرّاء. هل لا تزال ذاكرًا لها هذه الضاحية؟

عُلَبي: وكيف أنساها، يا أحمد، وفي عام ١٩٥٨، إبّان «الخناقة» في بيروت، كما يدعو أحداثَ ٥٨ الأهليّة سمكريٌّ من المصيْطبة، جاء على ذكره صديقُنا الحبيبُ، الراحلُ محمّد عيتاني، وذلك ربّما في بعض أدبه الخفّاق بالشعبيّة والحسّ الدّراميّ، أو ربّما بما تناهى إلى سمعيَ منه، وكنّا صديقين حميمين. لم أتمكّن، بسبب أحداث هذه الخناقة، وكانت بروفة وتدريبًا أوّلَ حديثًا على تدمير بلدنا لبنان بين حين وحين؛ لم أتمكّن من العودة إلى بيتنا في رأس النبع، إثر تقديمنا امتحاناتِ آخرِ السنة في الأونيسكو، حيث مبنى معهد المعلّمين العالي الذي كنّا ننتسب إليه. وهكذا نمتُ عندك، يا أحمد، في الشيّاح. وما لا سبيل إلى نسيانه أني أشرفتُ من بيتك على حقول الخسّ والبُقُول وشتّى المزروعات. لم تكن الضاحية، عهدذاك، غابةَ أبنيةٍ وشوارعَ ضيِّقةً وخَلْقًا مضطربًا وبعضَ ضجّةٍ وفوضى وعشوائيّة؛ كانت بقعةً هادئةً أنيسةً وأفقًا أخضرَ، وكانت الحقول تزنّر معظمَ بيوتها المتواضعة. لكم تغيّر الزمن وتبدّل الناس! ولكنّك لم تُجبني على سؤْليَ في تسمية بناتك العزيزات؟

حاطوم: قبل مباشرتي في الإجابة على ما تخال أنّي أتملّصُ منه حول أسماء بناتي، أُخبركَ أنّ الشيّاح التي شاهدتَها ولفتتْكَ خُضْرتُها وطراوةُ أَنسامها، وذلك في ٥٨، فكيف لو أنّك نزلتَها في ٣٥ عندما كنتُ أنا في حوالى الخامسة من عمري، أو في ٤٧ عندما تقدّمتُ لامتحانات الشهادة الابتدائيّة، السرتفيكا؟ ويا للغرابة، قد تقول في سرّك، يا أبا عمّار، فقد كنتُ أنا عندئذ في قُرابة السابعةَ عَشْرَةَ، وطرّ ربّما لي شارب! وسنعود إلى توضيح هذه الغرائب في سياق حوارنا. المهمّ الآن أنّ الشيّاح كانت، في هذه التواريخ السالفة، تشتمل على بيوتٍ معدودة؛ وكنّا، نحن سكّانها، ندعوها الضيعة، لأنّها كانت ضيعةً بكلّ معنى الكلمة. وكنّا نقول: «هذا من ضيعتنا، أو نحن ذاهبين إلى الضيعة أو خارجين منها قاصدين بيروت.» كانت عين الرمّانة مكسوّة بشجر الزيتون، ولم تكن تشتمل على أيّ بناية. وكما كنّا نلعب في حِرْج بيروت، الذي تقع مدرستُنا الابتدائيّة عند طرفه، كذلك كنّا نروح إلى عين الرمّانة لنلعب هناك ونلهوَ. لهذا كنّا نشاهد الشمسَ في الشيّاح عندما تُشرق، فليس هناك أبنية تعترضها ناحيةَ الشرق، أيْ جهةَ عين الرمّانة.

عُلَبي: كنتم تعيشون عهدَذاك في الهواء الطلق، ولم يكن عندكم بعدُ جوٌّ ضاغطٌ يصادر العقول ويقولب الناس!

حاطوم: وبعد، فأنا أعرف، يا أبا عمّار، أنّك لا تضيّع الخيطَ في الحديث، برغم غزارة الاستطراد في كلامك؛ ولا سبيل إليّ لأن أضيّع الخيط معك، فأنت دؤوب في البحث، كما عرفناك، ودؤوب في تجاذب أطراف الحديث. أنتَ رجلُ ودٍّ وحوار. وعلى هذا أقول عن بناتي اللواتي حملن أسماءً أجنبيّةً إنّ العالم بات صغيرًا، يا عزيزي، كما أنت عارف بلا ريب. ونحن نتجوّل بين الثقافات كما يتنزّه الناسُ بين الحدائق الغنّاء. فدون رودريغ ومعشوقتُه عرفناهما مع رائعة كورناي. والأدب اليونانيّ قديم ملهِم. وألف ليلة وليلة، ومصادرها جمّة، أهديناها للبشر المتعطّشين للحكايا. وهل نسينا الهند، هذا البحرَ المتلاطم من البشر، وهذه التجربةَ العريقة الفريدة في العيش والديمقراطيّة،

* ـ قُرئت في المجلس الثقافيّ للبنان الجنوبيّ في ٢٠٠٨/١١/٢٠ في إطار «تحيّة وفاء إلى اللغويّ والأديب أحمد حاطوم» بالاشتراك مع شوقي أبي شقرا وعبدالباسط حُدرج.

فهي البلاد التي أعطت غاندي ونهرو وأنديرا. اختارتني الأسماءُ أكثرَ ممّا اخترتُها. وربّما فاتني أن أُسمِّيَ إحدى بناتي باسمٍ ألمانيّ؛ ولو أنّي رُزقتُ بخامسةٍ لربّما كنتُ دعوتُها إنغريد، وذلك لهُيامي، كما تَعْلم، بالموسيقى السيمفونيّة، وعلى نحوٍ خاصّ بعبقريّها الألمانيّ العظيم بيتهوڤن. ولكم أشرتُ إليه في كتاباتي واستعدتُ مواقفه، كما أتيتُ على كتاب رومان رولان عنه. ثمّ ألا يتناهى إلى حافظتك الأبُ اليسوعيّ الذي علّمنا الفرنسيّة في معهد المعلّمين العالي، الأب پيروز، إذا لم تخنّي الذاكرة، وكان يصطحب معه الأسطوانات خلال دروسه، وكان يقول لنا إنّ اللغة الألمانيّة هي أحفلُ اللغات بالإيقاع الموسيقيّ؟!

عُلَبي: بلى، أنا ذاكرٌ كلّ هذه المَجَريات، يا أحمد، وسائلُكَ بدوريَ إنْ كنتَ تستعيد في حافظتك لقاءنا، في مطلع صيفٍ من عام ١٩٧٠، وذلك في محلّة «الطريق الجديدة،» عندما أخبرتني أنّ «نهادًا» على وشك الوضع؛ وهي، على طريقتك في التهكّم، وعهدذاك لم يكن الناس يعرفون جنسَ الوافد، أذكرٌ هو أمْ أنثى. فقلتَ لي: ستأتينا، كالعادة، بنتٌ رابعة، وسندعوها: رابعة، شأن ما كان عليه حالُ رابعة العدويّة! وجاءت البنت الرابعة، ولكنّك أسميتها، كما علمتُ بعد ذلك، أنديرا. وعلى ذكر «الطريق الجديدة» هل تذكر صديقَنا الحميم، المفتّش التربويّ والأستاذ الجامعيّ، أحمد نجا؟ كلّنا نذكره بوجعٍ كبير، فلقد مضى عام ١٩٧٧ إلى عمله، ولكنّه لم يعد بعدُ حتّى الساعة! ابتلعتْه المقاديرُ وطواه الظلم الغادر. كان إنسانًا رائعًا بطيبته وظَرْفه؛ وكان في شبابه الغضّ يراسل فتاةً إيطاليّة، فيخطّ لها عنوانه بالإنكليزيّة على أنّه من سكان New Street! هل لقيتَه هناك في الأعالي؟ قبّل لي أبا كمال، وأخبرْه أنّي على الودّ والوفاء مقيم. كيف حالكم هناك، أمْ أنّ الأمر سيّان هنا وهناك، ما دام البشرُ هم البشر؟! فلنترك الشكوكَ والأحزانَ جانبًا، لئلا نُغرق الناس في موجة الأسى، إذ يكفيهم ما هم عليه في بلدهم هنا من يأس. لنقلب الأسطوانةَ، يا أحمد، أأنتَ ذاكرٌ كيف كنت تأتينا إلى الجامعة، في السنة الأولى، ممتطيًا صهوةَ بسكليت، قاطعًا بها المسافةَ بين الشيّاح والأونيسكو؟

حاطوم: وكيف أنسى وقد دفعْنا ثمنَها في ذلك الحين مائة وثماني ليرات، وكانت جديدةً خَلَنْج من الشركة. مائة وثماني ليرات استدنّاها.

عُلَبي: منذ عام ١٩٥٥ عندما التقينا في معهد المعلّمين العالي الذي غدا اسمُه كليّة التربية بعد ذلك، بدأتْ رحلةُ الصداقة المديدة المؤرَّجة التي جمعتْنا، فصرتَ عندما تقول أحمد أمام الآخرين تعنيني، وصرتُ عندما أذكر أحمد أمامهم أعنيك. ولكنْ هلاّ استَعَدْنا محطّات مررتَ بها، قبل أن تَفِدَ على الجامعة. ثم هذا الغرام باللغة العربية الذي لازمك، هل أخذتَه عن أحدٍ في العائلة؟

حاطوم: وُلدتُ عام ١٩٣١ في الشيّاح لأبوين أُميّين. وسبق لوالدي، سليم، أن اقترن بمنيرة فرحات، فولدتْ له أخي جميل وأختين. ولكنّه إبّان الحرب الكونيّة الأولى، وقد ضربت المجاعةُ بلدَنا لبنان، أضاعها في الشام ولم يعثر لها على أثر؛ فكان أن عاود الزواج بأمّي، جميلة شاهين، التي ولدتني، فضلاً عن أربع شقيقات. أخي جميل، أبو عدنان، عندما رثيتُه، لسنواتٍ قليلة، ذكرتُ أنّه ليس مجرّد أخٍ، لأنّه من أمٍّ ثانية، بل هو أكثر من شقيق. وكما نقول في العربية: «له عليَّ أيادٍ بيضاء»، فما زالت يدي تتحسّس فضلَ يده. فهو الذي أمسك بها وقادني في الزاروب المفضي إلى الحاجة صفا وسلّمني إليها، فقرأتُ في كتّابها القرآنَ. وأبو عدنان هو الذي أمسك بيدي مجدّدًا وأدخلني مدرسة الغبيْري الرسميّة، وقد أنهيتُ فيها الدراسة الابتدائيّة. وهو الذي سلك بيَ الطريقَ إلى رأس النبع في بيروت، حيث سجّلني لدراسة المرحلة المتوسّطة في المدرسة العامليّة. وراعونا في العامليّة فارتضَوْا أن نَدْفع القِسْط على نحوٍ شهريّ لا فصليّ.

عُلَبي: قرأتُ حديثًا في إحدى الصحف أنّ صاحبك، الشاعر الكبير أدونيس، قد ختم القرآن وهو في الثانيةَ عَشْرَةَ.

حاطوم: أنا فعلتُ ذلك في السادسة على يد الحاجّة صفا وفي أقلّ من سنة. وكنتُ سريع القراءة، بحيث قالت الحاجة لأمّي، بعد إتمامي جُزْءَ عَمَّ، لا حاجة به إلى الانتقال إلى رُبْع ياسين على حدة، فاجلبي له القرآنَ بتمامه. على أنّهم في العائلة لم يقيموا لي حفلة ختمة، ربّما ضغطًا في المصروف، وحالُنا كما تَعْلم! وكانت الحاجّة صفا طاعنة، عَبْلة الجسم، مشيقة القامة، تلبس تنُّورة طويلة، وتضع أحيانًا النظّارات. وكانت مختلفة مع زوجها، حاقدة عليه؛ لهذا عندما كان يتردّد على الكتّاب ثم يمضي لسبيله، تأخذ في الدعاء عليه، كأن تقول: «إنشا اللّه ياخدوك محمّلاً على الحمار!» ثم تدعونا إلى أن نردّد بعدها، وهي تُمسك بيدها قضيب رُمّان، وكنّا صبيانًا وبناتٍ حوالى العشرين، نجلس على الأرض في غرفة واحدة، تدعونا إلى أن نردّد بصوت واحد: «آمين»!

عُلَبي: وماذا تُخبرنا عن تعليمك الابتدائيّ وقد حملتك الحاجةُ الماديّة، وهي قصّة قديمة عندك، أو كما تدعوها مزمنة (كرونيك)، إلى أن تجعل هذا التعليم على مرحلتين متساويتين، تقطعهما السنواتُ الثلاث التي أمضيتَها من ٤٢ إلى ٤٥، وهي من سنوات الحرب العالميّة الثانية، وذلك في معمل جبر بالشيّاح، وسمعتهم، في ختام الحرب سنة ٤٥، يحكون في المعمل عن إلقاء القنبلة الذريّة؟!

حاطوم: معمل جبر حيث اشتغلتُ كان يصنع البسكويت وراحةَ الحلقوم والكورنيه للبوظة والكبريت، أصلاً هو معمل كبريت.

وأتذكّر، وقد اشتغلتُ في كلّ الأقسام، كيف كان يجري تصنيع الكبريت في مراحله المتعدّدة: يصنعون العيدان آليّاً، ثم يحمّصونها في قازان ضخم يُلقّمه عاملٌ من فوق بكُتَل العيدان، والنيران موقّدة من تحته؛ ويجري بعدئذ تغطيسُ عيدان الكبريت آليّاً فتصبح صالحة للاستعمال. وهذا القازان كنّا نضع عليه الأكل، الذي نجلبه معنا في سطيلّه، بغية تسخينه، وعند الخروج من المعمل كانوا يفتّشوننا!

عُلَبي: تذكّرني، أبعدَ اللّهُ عنك الشرّ وشُبْهةَ البسكويت والراحة، بخبريّة رواها لي أحدُ الأرمن من أصحابي. فقد ذكر لي أنّ العمّال، في معمل كبير لتصنيع الألبسة الداخليّة بأرمينيا السوفياتيّة، كانوا ينصرفون من العمل وهم في وفرةٍ لافتة من الصحّة السابغة، وذلك لأنّهم كانوا يحشون أجسامَهم ويلفّونها بما يسطون عليه من ملابس داخليّة!

حاطوم: في المرحلة الابتدائيّة الأولى كانت أوّل كلمة سمعتُها من كلمات النحو العربيّ هي المبتدأ والخبر. أما الكتاب الذي درسنا فيه فكان من تأليف مصطفى الغلاييني...

عُلَبي: (مقاطعًا) ـ ويحكَ، يا أحمد، سامحك اللّه، كنتَ بغنى عن ذكر اسم المؤلّف. فلهذا الرجل العلاّمة فضل كبير وأثر زاكٍ طيّب. وأقول لك همسًا، إذا جاز الهمسُ ههنا، إنّي أتبيّن ابتسامةً عريضةً ذاتَ معنى على محيّا أمين عام هذا المجلس الثقافيّ للبنانَ الجنوبيّ الذي نقف على منبره؛ فلقد وعدتُه منذ سنوات بمحاضرة عن هذا العَلَم البيروتيّ الجليل، ولكنّي أخلفتُ الوعد، وليس من دأبيَ أبدًا أن أنكث العهدَ مع صديقٍ يجمعني به وَدادٌ يُنيف على نِصْف قرن. ولكنّها عَصْلجتْ، تَنْحرتْ، رَوْكبتْ معي هذه المرّة؛ مع أني جمعتُ عن حياة الشيخ مصطفى الغلاييني وآثاره وما كُتب عنه الشيء الوفير جدّاً. على أيّ حال لنأملْ خيرًا. تابع يا عزيزي أحمد...

حاطوم: في هذه المرحلة الابتدائيّة الأولى علّمنا الفرنسيّةَ غبريال أبي راشد، وكان ساكنًا الغبيْري وعنده بقرة، فيأخذ التلاميذ بعد الانصراف ليحشّوا له لأجل إطعام البقرة. وذاتَ يوم لم أذهب إلى الحشّ، فعاقبني المعلّم غبريال ليس لأنّي تخلّفتُ عن الدرس ولكنْ لأنّي تخلّفتُ عن الحشّ! وكان الذين علّمونا في المرحلة الابتدائيّة الثانية، أيْ بعد تركيَ معملَ جبر وعودتي إلى متابعة الدراسة الابتدائيّة، كان معظمهم، كما المدير عفيف حنتس، من البيارتة الذين يقصدون المدرسةَ الواقعة عند طرف حرْج بيروت، مهرولين خلال أشجار وممرّات هذا الحرج التاريخيّ الذي استُبيح وتقطّعتْ منه أوصال إبّان حربنا الأهليّة المجيدة. من هؤلاء المعلّمين الأبرار منير الكوش الذي كان يقرأ لنا مسرحيّة **محمّد** لتوفيق الحكيم؛ كما كان عاطف العريس يقرأ لنا قصصًا عن الأندلس لمحمّد فريد أبو حديد، وكنتُ أنا تَدْمع عيناي عند مسمعها، ومن يومها انحفر فيّ الشعورُ الإسلاميّ بالمجد المفقود. وكانوا في المدرسة، في كلا المرحلتين، يُعطوننا كُتُبَ مطالعةٍ نأخذها إلى البيت على سبيل الاستعارة. ومنها كُتُب كامل الكيلاني عن علي بابا والسندباد وعفاريت اللصوص، وأذكر من هذه الكتب التي طالعتُها عهدَذاك **قميص الصوف** لتوفيق يوسف عوّاد.

عُلَبي: وعلى هذا المنوال فأنتَ عندما تقدّمتَ إلى الشهادة الابتدائيّة عام ١٩٤٧ كنت فتًى غُرانقًا في حوالى السابعةَ عَشْرَةَ، أيْ مؤهّلاً للخطبة والزواج تقريبًا!

حاطوم (ضاحكًا): تقريبًا. وبعد نيلها، الشهادةَ طبعًا، لا الخطيبة، كنتُ أذهب من الشيّاح إلى المدرسة العامليّة برأس النبع وأعود منها مشيًا. على أنّي بدأتُ دراسة المتوسّط، وكانت مدّته ثلاث سنوات، وأنا مجهّز، أو بلغة أيّامنا العصيبة، مسلّح، بأمريْن: فمنذ وقت باكر جدّاً ختمتُ القرآن؛ كذلك كنتُ حافظًا لاميّة العرب التي نظمها الشاعرُ الجاهليّ الصُّعلوك، الشَّنْفرى، عَبْرَ ثمانية وستّين بيتًا، على ما فيها من أثقالٍ لغويّة خشنة تعود إلى المصطلحات البدويّة التي تحفِل بها، ومنها هذان البيتان الذائعان:

دعستُ على غَطْشٍ وبَغْشٍ وصُحْبتي
سُعارٌ، وإرْزيزٌ، ووَجْرٌ، وأَفْكَلُ

فأَيّمتُ نِسْوانًا وأيتمتُ وِلْدةً،
وعدتُ كما أبدأتُ، والليلُ أَلْيَلُ.

أمّا كيف حصلتُ على هذه القصيدة، فقد كنتُ أشتغل مع أبي في استصلاح بيتٍ عتيق، فلقيت الجزء الثاني من سلسلة «الروائع» الشهيرة، التي كان يُصدرها فؤاد إفرام البستاني، مرميًا على الأرض.

ثم إنّي في المرحلة الابتدائيّة شاركتُ، ذاتَ مرّة، في احتفال المدرسة بعاشوراء، فألقيتُ قصيدةً لم أعد أذكر سوى الشطر الأوّل من البيت الأوّل: «شِفار السيف نهجُ الصالحينا...» وهي من بحر الوافر، كما هو حالُ معلّقة عمرو بن كُلْثوم: «ألا هُبّي بصَحْنِكِ فاصبَحينا...» ولم أكن، عمرَذاك، أعرف شيئًا عن أوزان الشعر.

وفي صف البريفه بالعامليّة علّمنا عبدالعزيز سيّد الأهل.

عُلَبي: أنا أذكره، لأنّ بيتنا في شارع عمر بن الخطّاب برأس النبع كان على مقربة من العامليّة، وكنت أُشاهد سيّد الأهل؛ وكان مبعوثًا من الدولة المصريّة للتعليم في لبنان، وقد أصدر خلال وجوده بيننا مجموعةً من الكتب صدرتْ عن دار العلم للملايين بين سنتَيْ ٤٨ و٥٣، وتميّزتْ بالمعالجة الأدبيّة الرصينة والأسلوب الراقي. ومن هذه الكتب عبقريّة البُحْتري **(١٩٥٣)، وقد استمتعتُ بقراءته، إبّان درسي البكالوريا الأدبيّة؛ وكنت أُعدّ لأُستاذيَ رئيف خوري موضوعات أدبيّة تتراوح صفحاتها بين الخمسَ عَشْرَةَ والعشرين.**

حاطوم: ولأنّ سيّد الأهل مِصْريّ فقد كان يحكي لنا نِكاتًا، وقد باعنا كتابه **النكتة المصريّة** بنصف ليرة. وانطباعي عنه جيّد. وهو قد وضع لي، ذاتَ مرّة، على موضوع للإنشاء علامة تِسْع على عَشْر. كنت مبرِّزًا في الإنشاء، وأُجيدُ الحفظ، ولا أَقع في أَخطاءٍ نحويّة أو إملائيّة. أصلاً عندما كنتُ في الابتدائيّ كان معلّمنا علي الخطيب، وهو من برجا، وكنّا نحبّه، كان يتغنّى أحيانًا ببعض جُمَلي الإنشائيّة. وأنا منذ وقتٍ باكر استهواني كلُّ ما هو نحوٌ، وصددتُ عن كلّ ما هو صَرْف. فالصرف، وخاصّة الإعلال والإدغام والإبدال وما شابه، موضوعات لا أُؤمن بها أو أنّها لا تثير شهيّتي للبحث، بل إنّني أَستسمكها كثيرًا. فأنا عُنيتُ بتركيب الجملة، وعلم الصرف عندي لا يُقدّم ولا يُؤخّر فيها، فهي جزئيّات طبعًا بالنسبة إلى التركيب. فلقد استهواني التركيب كثيرًا في حياتي العلميّة اللاحقة. ما همّ إنْ عرفتُ أنّ الكلمة اسم فاعل أو اسم مفعول أو اسم زمان أو مكان. ها هي السِّريلانكيّة التي عندنا، بِرْينكا، تقول: «تعاونيّة»، ولا تعرف أنّ هذا الاسم مصدرٌ صناعيّ؛ بدليل أيضًا أنّها تقول: «بلّش المسلسل»، ولا تعرف أنّه اسم مفعول!

عُلَبي: لن نُطيل على المستمعين، لئلاّ يَشْرعوا في النظر إلى معاصمهم. بعد المتوسّط في العامليّة يَمّمتَ شطرَ دار المعلّمين الابتدائيّة؛ هذه التي كانت كائنة في الأشرفية، ثم انتقلتْ إلى فرن الشبّاك، وأخيرًا حطّت الرِّحال في بئر حسن. وكانت الدراسة تستغرق فيها سنتين.

حاطوم: تقدّمتُ للمباراة لدخول دار المعلّمين، وكان ترتيبيَ الرابعَ عشَرَ على الخمسين المطلوبين. وكان مدير الدار فؤاد إفرام البستاني، وقد دخل علينا بعد النجاح وقال: كم واحدًا تقدّموا للمباراة؟ فأجبناه: أربعمائة. فقال بأسلوبه المعهود في التريقة والمُزاح: وصلني أربعمائة كارت توصية وواسطة! وعلّمَنا في الدار مادّةَ التربية المدنيّة نسيم يزبك، وكان مقتدرًا في مادّته. كما كان طاعنًا وأعزبَ وشديد المرح. وسأله، ذاتَ مرّة، أحدُ التلامذة: ما هو الدليل على نظريّة داروين في أنّ الإنسان أصلُه سعدان؟ فأجابه: أنت!

عُلَبي: ثم التقينا في الجامعة. وبعد التخرّج مضيتُ أنا إلى التعليم، فصرفتُ أربعة عقود بالتمام والكمال أُعلّم وأتعلّم معًا. وذهبتَ أنت إلى التفتيش التربويّ، يوم كان للدولة هيبة وسلطان؛ لذا كان رئيسكم يقول لكم أنْ لا باب يُغلق في وجهكم، فأنتم السادة والآمرون والمشرفون والموجّهون والمراقبون. هذا بات من التاريخ، يا أحمد؛ فالدولة عندنا تبحث عن نفسها، وصارت دولاً ومناطقَ ومربّعاتٍ وميليشيات.

حاطوم: عندما انفجر الخامس من حزيران ٦٧ كنت أُؤدّي مهمّتي التربويّة في قرًى بالجنوب عند حدود الوطن. انتهى الوطن، على صِغَره، أوطانًا ومستنقعاتٍ طائفيّة بل ومذهبيّة!

عُلَبي: هل وَرِثت، يا أحمد، شيئًا عن أبيك، لا أقصد المال، فهو غير وارد، إنّما عنيتُ شيئًا من طباعه أو فضائله؟ ثم ماذا كانت صنعة أبيك؟

حاطوم: كان أبي يشتغل بالعمار. كان مورِّقًا وهو باطونجي أيضًا يُعنى بصبّ السقوف. وقد أَخذتُ عنه عمل الباطونجي، ورافقتُه في العمل خلال المرحلة المتوسّطة من تعليمي، بداعي الحاجة الملحّة. وأبي كان يُضرب به المَثَلُ بالعمل المتقن الدقيق الذي يحتاج إلى شطارة ومعلّميّة. وربّما وَرِثتُ عنه هذا الميل إلى الإتقان. أتذكّر عنه أنّه رجلٌ صموت، يحكي الكلمة اللازمة. بارعٌ جدّاً في لعبة الداما، لا أحد يقدر أن يَغْلبه فيها. وقد عاش طويلاً فبلغ الخامسة والتسعين، وغادرنا عام ١٩٧٤ عند بوّابة الحرب الأهليّة، يكفيه أنّه عاصر مجاعة الـ ١٤. وكان نكتجيّاً، حتّى في التعامل مع الموت. ماتت أُمّي قبله بسنة، فقال لي إثر دفنها: حرام، هلّق صارت وحدها! وعندما أشرف هو على الموت طلب سيكارة، فقال له أخي أبو عدنان: كنت بدّك تموت، كيف بدّك تشربها السيكاره؟ فقال له: غيّرت رأيي، ما بقا بدّي موت!

عُلَبي: ألستَ تذكر، يا أحمد، كيف جئتنا برفقة أخيك أبي عدنان، إبّان أحداث ٥٨ الأهليّة، وذلك في زيارةٍ لشباب الحركة الوطنيّة في جناحها الديمقراطيّ، وذلك في مركز مدرسة عائشة أمّ المؤمنين، التابعة لجمعيّة المقاصد، في محلّة قصقص؟ وهناك عمل أبو عدنان، وكان حلاقًا عهدَذاك، قبل أن يلتحق بعدئذ بالعمل في المحكمة الجعفريّة؛ أعملَ، متبرِّعًا، مقصَّه في رؤوس الشباب وشعورهم الكثّة. وفي هذا المركز زارنا جبلُ الطيبة والمعرفة، الدكتور علي سعد، وشارك في مباراةٍ للتصويب بواسطة البندقيّة فحلّ أوّل! كما زارنا الدكتور علي في الإذاعة التي أقمناها في مدرسة مدام نعمه بالطريق الجديدة، وهي الإذاعة التي ركّبها وأشرف عليها، فنيّاً، شابّ متمرّد يُدعى: عدنان معلوف، وكان نتاج فراشٍ ضمّ أمّه مع عشيقها الضابط الفرنسيّ. عاش عدنان متوتّرًا، قلقًا، لهذا حاول الانتحار في مصر فلم يُفلح، فعاود الكرّة في السويد فأصاب مُراده. وهكذا دَيْدنُ مَنْ يروم انتحارًا ولا يبلغ هواه في المرّة الأولى. وقلّة نادرة يعرفون أنّ الشاعر والناقد خليل حاوي انتحر مرّتين، فأخفق في الأولى وخسرناه في الثانية!

حاطوم: نحن تقدّمنا في قطار العمر أرضًا، وبتنا مع الزمن نقتات من خبز الذكريات. على أنّي سائلكَ، وقد صرتُ إلى ما أنا عليه الآن، عن آخِر أخبار الكوكب الذي بارحتُه؛ لأنّي أعرفكَ جمَّ الاطّلاع، مواظبًا على الصِّحافة تقرأها بنهم؛ غارقًا في سماع الراديو، وهو صديقُكَ الدائم عند المساء، تقلّب المحطّات فيه متسقّطًا الأخبارَ والأحاديثَ والتصاريحَ والحوارات، وتغفو غالبًا وهو لا يغفو له صوت. فما هي، باللّهِ عليك، آخِرُ الأخبار فوق كوكبكم؟

عُلَبي: نحن ليست عندنا معرفةٌ بأحوال الاتصالات عندكم، أهي حمام زاجل أمْ أنترنت، وقد علّم الإنسانَ ما لم يَعْلَم؟ فهل بلغكم ما حلّ بالأميركان عندنا وبنظامهم الماليّ الميمون؟ يومَ سقط السوقيات تلك السقطةَ المريعةَ خيّم الكَرْبُ في نفوس الخيّرين فوق كوكبنا، لأنّهم أسفوا بمرارة على محاولة تاريخيّة تسعى لمزيد من العدل والسويّة بين الناس، ولكنّها أخطأتْ كثيرًا بحقّ نفسها وذهبتْ إلى حتفها ضحيّةَ عثراتها المتراكمة. وقلتَ لي يومذاك، بحَدْسك العاطفيّ وكرهِكَ الظلمَ والظالمين: لن يطول الحالُ بالأميركان حتى يسقطوا بدورهم. وكنتَ تقرن كلمة الأميركان دائمًا بعبارة: اللّه يلعنهم! وما قلتَه مُجْمَلاً، ومن باب التمنّي، بسطّه أنا، وقتذاك، بالأرقام والمعطيات. فهذا التبذير الإمبرياليّ الأسطوريّ بالثروات والمكتسبات وحقوق الشعوب وكراماتها لا يمكن علميّاً وواقعيّاً وبالقلم والورقة أن يطول إلى ما لا نهاية، فمآله ختامٌ دراماتيكيّ مزلزلٌ مدمّر. ونحن لا نزال اليوم في بداية الأزمة الرأسماليّة، والعالم يهتزّ على وقع عواصفَ ماليّة لا يصدّقها حتّى أصحابها، فنهاراتُ بورصاتهم كوابيس؛ وكأنّهم نَسوا تفاصيلَ ما أصاب أسلافَهم، خلال أزمة ١٩٢٩ ـ ١٩٣٢ إلى ١٩٣٧، وذلك من كوارثَ حملت البطالة والجوع والانتحار والجنون! أنقلْ، يا أحمد، إلى الإخوان الذين نعرفهم هناك، البُشْرى بنهايةٍ متجدّدة دوريّة لتاريخ الرأسماليّة المتفلّتة الفوضويّة المتوحّشة؛ وأعلمهم أنّ الرقص فوق جثّة الاشتراكيّة لم يطل أمدُه بتاتًا، لأنّ العدل في نهاية المطاف لا يموت! المهمّ أن نعتبر بما جرى لنا ولهم، وأن نستخلص الدروس والعِبَر لمستقبل الإنسان. ويا كارل ماركس نَمْ مطمئنّاً، لأنّ كتابك رأس المال **عاد حاليّاً ليُتداول ويُشترى بكثرة، كما أوردت الأنباء. هل التقيتموه هناك، يا أحمد، أم أنّه منكبّ على تجديد** رأس ماله **في الأعالي؟**

حاطوم: أنت صديقي وسَميّ القديم، وقد فكّرتَ أنت، ذات يوم، أن نضع معًا معجمًا وندعوه: **معجم الأحمدَيْن**، حاطوم وعُلَبي، مستوحيًا في العنوان **تفسير الجلالين** للقرآن: جلال الدين المَحلّيّ وجلال الدين السُّيُوطيّ. ولكنّ المشروع جاء متأخّرًا، وكنّا نحن الاثنين متقدّميْن بعضَ الشيء في سفرة العمر، والمعجم يحتاج سحابةَ عمر. ليست اللغة، وكانت مدار همومي وحشو أيّاميَ، هي التي تؤرّقني في مُقامي الجديد، إنّها بخير، وهي لغتنا، نحن أهل الجنّة؛ وإنّما شغلي الشاغل فوق هو ما نحن عليه تحت! فلقد غادرتكم والدنيا العربيّة وبيْتنا اللبنانيّ يضطربان أشدّ الاضطراب، بل قُلْ أكثره مدعاةً إلى الحزن والهلع.

عُلَبي: هو حزنٌ كاد أن يخلّع قلبي، وهو هلعٌ على المصير كاد أن يُقعدني عن الكتابة في السنة الفائتة. تجمّد القلم بين أناملي، فلم يرشح إلا لِماماً، ومن مآلوفه أن يجريَ متدفّقًا، حتّى في عزّ الأزمات والكوارث. لن أنسى في حياتيَ الطيران الإسرائيليّ يحوم فوق بيروت عام ٨٢ على مدار إحدى عَشْرَةَ ساعةً متواصلة، وقد أمضيتُها كاظمًا الغيظ متجلّدًا، وذلك في مراجعة كتاب، لأُفيد من بعض أفكاره في تدبيج أطروحتي للدكتوراه حول طه حُسَين؛ وإبّان الحرب الأهليّة الضّروس التقيتُ، غير مرّة، الإذاعيّ الساحر، وَفْقَ رأيي ورأيك فيه، عصام العبداللّه، فسألني كيف السبيل عندي لهذه الكتابة الجيّاشة على صفَحات النهار، والزمن حرب واعتراك وخضّات؟ فأجبته: إنّه طريقي لمكافحة هذه الأهوال، إنّه طريق الكتابة لنسيان المآسي الأهليّة البشعة والوقوف في وجهها! فنحن نملك قلمًا ينطِق بالحقّ وينصره، لا بندقيّة تلفظ النار وتجلب الدمار.

حاطوم: بلا ريب، يا عزيزي، وأنت أعْلَم بكتاباتي الناقمةِ على العروش والسلاطين، المناهضةِ الطغيانَ والطغاة، المندّدةِ بالاستبداد والمستبدّين، المقرّعةِ كَتَبةَ السلطان وأعوانه وزبانيته. وكنتُ أجنح إلى أقوال الحكماء، ملحّاً على منطوق الأخلاق، مشيدًا بمناقبيّة هذا وذاك من الحكّام الأنقياء، وفي الطليعة منهم عليّ. فتقف لي بالمرصاد، قائلاً لي بحزم: خفّفْ من مثاليّتك، يا أحمد، فالتاريخ والحُكْم والسياسة ليست من صُنْع البسطاء والمثقّفين. فهي ضرورات ومصالح وحاجات؛ وبالتالي، كما كنتَ تذهب وتُلحف في التصوير، لا دخل لمكارم الأخلاق فيها؛ من غير أن يعنيَ ذلك لحظةً، كما كنتَ تردّد دائمًا وتنبّه، أن تعاكس هذه الضروراتُ والمصالح والحاجات المناقبَ وتلغيَها.

عُلَبي: نوطة الختام في سيمفونيّة حياتك، وأنت المغرم بهذا الضرب الموسيقيّ، كانت صراعًا بين الأنين والأمل. في المستشفى، قبل يومٍ من اعتزامك رحيلاً، كان أنينُك، في الغرفة الملاصقة للرَّدْهة، يصُكّ مسمعي ويخترق مشاعري. هل كُتب عليّ أن أُودّع بعضَ أصدقاء العمر، الواحد تلو الآخَر، فيتركون بين راحتيّ أنينهم الموجع، ويخلّفون فراغًا في روحيَ ويباسًا في أضلعي؟ على أنّ الأمل انتصر على الأنين والردى. فلقد أخبرتني، إبّان شهورك الأخيرة، أنّك على سباقٍ مع الزمن حول كتابك السادس والأخير نُقُوش. كنتَ تخشى أن تغادر قبل أن تكتحل عيناك، اللتان تَرْشحان فطنةً وطيبة، بمرآه مطبوعًا. وجاؤوك، وأنت على الفراش تصارع وتئنّ، بغلاف نُقُوش، فسرَتْ في وجهك المضنى نسمة. فأنت صانع الكلمات، وأنت الذي مِنْ سِنّ قلم الرصاص الذي دأبتَ على استعماله عند الكتابة، تفوح طيور، وينعقد غيم، وتُمطر زنابقُ. أيّها الكائن اللغويّ والأديب البليغ، يا صديقيَ المحبّ، مَنْ ينقُشُ مثلك لا يرتحل، بل يمكث في الأرض حَبَقًا، سِنْديانًا، وسنابلَ.

بيروت